مجلة المعجمية - تونس

ع 5-6

1990

صعوبات الاستشهاد الشعري في المعجم العربي التاريخي

بحث : الدكتور شوقي ضيف
مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة

لا توجد أمة تماثل الامة العربية في كثرة معجماتها اللغوية القديمة إذ ظلت طوال حقبها التاريخية السالفة تعنى بوضع المعاجم، وبدأ ذلك في القرن الثاني الهجري مع وضع الخليل بن احمد لمعجمه «العين» وأخذ يتوالى تأليف المعاجم بعده منذ القرن الرابع الهجري، وعنينا في العصر الحديث بطبع طائفة كبيرة من امهات تلك المعاجم، وهي بالترتيب الزمني لها ـ الجمهرة لابن دريد والتهذيب للازهري والمجمل ومقاييس اللغة لابن فارس والصحاح للجوهري والمحكم والمخصص لابن سيدة والاساس للزمخشري ولسان العرب لابن منظور والقاموس للفيروز أبادي وتاج العروس للزبيدي سوى معاجم مختصرة مثل المصباح للفيومي. ونشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة طائفة من معجمات نفيسه مثل الجيم للشيباني وغريب الحديث لابي عبيد وديوان الادب للفارابي والافعال للسرقسطي والتكملة للصغاني والتنبيه والايضاح لابن بري والتكملة للزبيدي وانبرى علماء اللغة اللبنانيون في العصر الحديث لوضع المعاجم مثل محيط المحيط للبستاني واقرب الموارد لسعيد الشرقوني. ونشر مجمع اللغة العربية القاهري معجمين لغويين

عصريين هما الوسيط والوجيز، ومازال يحاول اخراج معجم كبير جزءا تلو جزء. ونشرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المعجم العربي الاساسي.

وكل هذه المعاجم قلما تعنى بالترتيب التاريخي الدقيق للمعاني من حسية وعقلية وعامة كلية وخاصة جزئية وحقيقية ومجازية، وينبغي ان يعنى بذلك كلّه المعجم اللغوي التاريخي العصري، فلا تسرد فيه المعاني سردا بدون نظام على نحو ما نلاحظ مثلا في اللسان، فان من يبحث عن معنى بعينه للفظة قد يقرأ بضع صفحات حتى يعثر على ضالته وايضا فان تاريخ استعمالاتها هي ومشتقاتها لا يتضح له، والمعجم التاريخي العصري لا يتلافى ذلك فحسب، بل يتلافى ايضا نقص النظام في ترتيب المادة بحيث توضع فيه على اساس من التسلسل التاريخي، حتى يستطيع قارىء المادة ان يتتبع تطور الكلمة منذ أقدم عصورها، وبذلك تتجلّى له صورة الحضارة العربية وهي تصعد في معارج الرقي والتقدم، ولابد ان ترتب الافعال والاسماء فيه ترتيبا ثابتا مع توضيح منهج هذا الترتيب في مقدمته توضيحا تاما ولابد ان تشفع المعاني المختلفة للمادة بشواهد من القرآن الكريم: كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن الحديث النبوي للرسول صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد، ومن كلام فصحاء العرب نثرا وشعرا.

وتكتظ المعاجم الكبيرة القديمة بشواهد شعرية لجاهليين ومخضرمين وإسلاميين، وهي كثيرة كثرة غامرة، غير انها لم ترتب زمنيا، فقد يوضع الشاهد الاسلامي فيها قبل الشاهد الجاهلي او شاهد المخضرمين، اذ كان همهم مقصورا فقط على الاتيان بشاهد شعري فصيح دون اي عناية بزمنه وتاريخه، وهي اول صعوبة تقابل من يحاول وضع معجم تاريخي للغة العربية اذ ينبغي عليهم ان يعيدوا الى الشواهد الشعرية في المعاجم الكبيرة ترتيبها التاريخي، ويقتضي ذلك منهم ان يكونوا على علم دقيق بتاريخ الشعراء الجاهليين والمخضرمين

والاسلاميين حتى يستطيعوا ترتيبهم ترتيبا زمنيا دقيقا، وكثيرون منهم شعراء مغمورون لا يكاد التاريخ يعرف عنهم شيئا، وينبغي ان يرجع فيهم الى كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وكتب اللغويين مثل الالفاظ لابن السكيت ومجالس ثعلب ومقاييس اللغة لابن فارس وكتاب التنبيه والايضاح لابن بري اللغوي المصري، وهو مليء بمراجعات وتصحيحات على شواهد الشعراء في كتاب الصحاح للجوهري.

والشواهد الشعرية في المعاجم الكبرى القديمة قسمان: قسم منسوب الى ناظمه، وقسم مجهول ناظمه، والقسم الاول مليء بصعوبات متعددة، فكثير منه نسب الى غير ناظمه خطأ، اذ نجد في لسان العرب مثلا بيتا في مادة اطم منسوبا الى الشماخ وهو في ديوان كعب بن زهير، ونجد بيتا ينسب الى الفرزدق وهو لجرير او للعجاج وهو لابنه رؤبة او لسويد بن كراع وهو لسويد بن أبي كاهل، وقد يترتب على ذلك حكم لغوي خطأ، فتنسب لغة في كلمة الى شاعر وقبيلة وهما منها براء، وخير مثل يصور ذلك ان نجد الجوهري في الصحاح ومن تابعة مثل اللسان ينسبون بيتا الى لبيد على هذه الشاكلة:

لو شئت قد نقع الفؤاد بشربة
تدع الصوادي لا يَجُدْن غليلا

ومعروف ان الفعل وجد مضارعه يجد بكسر الجيم، غير ان الجوهري انشده يجدن بضم الجيم ونسبه الى لبيد العامري وقال انها لغة عامرية لا نظير لها في باب المثال وتبعه صاحب اللسان والزبيدي في تاج العروس قائلين: يَجُدْ بالضم لغة عامرية لا نظير لها في باب المثال، وكان حريا بهم جميعا ان يحاولوا مراجعة لبيد في ديوانه، ولو صنعوا لعرفوا كما لاحظ ابن بري في كتابه «التنبيه والايضاح عما وضع في الصحاح» ان البيت ليس للبيد، وتحرى حتى عرف انه لجرير، ولا نعرف كيف وقع الجوهري في هذا الخطأ من نسبته للبيد، وايضا في رواية يجدن فيه بضم الجيم وهو خطأ مركب: خطأ في الرواية ونسبة البيت الى لبيد،

وخطأ في استنتاج انها لغة عامرية دون الرجوع الى ديوان لبيد ودواوين شعراء بني عامر، ولو صنع الجوهري ذلك لعرف انها ليست لغة عامرية كما توهم. ولعل في ذلك ما يدل بوضوح على ما ينبغي من مقابلة الاشعار المنسوبة على دواوين اصحابها للتأكد من صحة نسبتها وصحة نطق ألفاظها نطقا سليما.

ووقع في المعاجم اللغوية تصحيف كثير في ألفاظ الشواهد الشعرية، وللقدماء كتب في التصحيف ويسوق ابن جني في كتابه الخصائص طائفة من تصحيفات أئمة اللغة وسقطاتهم من أمثال ابي عمرو الشيباني والفراء والمفضل الضبي والاصمعي وابي زيد فما بالك بتصحيفات من وراءهم ممن لا يبلغون مبلغهم في الأمانة اللغوية، وعني ابن بري في كتابه التنبيه والايضاح بتعقّب الجوهري في جوانب من نسبة الشواهد الشعرية وما وقع في نسبتها من خطأ وفي ألفاظها من تصحيفات فينبغي أن يكون تلقاء أعين المعاجم العصرية، وبالمثل تعقّب صاحب القاموس للصحاح ومن تعقّبوا القاموس نفسه مثل أحمد فارس الشدياق. وتلقانا في لسان العرب بعض تصحيفات من حين الى آخر، ومن ذلك مثلا ان لفظ خزازى اسم لجبل كانوا يوقدون عليه حين الغارة، وفيه يقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

ونحن غداة أوقد في خزازى
وفدنا فوق رفد الرافدينا

وروى صاحب اللسان هذا البيت في مادة خزر: خزارى بالراء وقال انه اسم موضع وهو تصحيف واضح ومن ذلك ان نجد صاحب اللسان في مادة جوش يروي عن ذي الرمة قوله:

تلوّم يَهْيَاهٍ بياهٍ وقد مضى
من الليل جَوْشٌ واسبطرّت كتائبُه

يصف بذلك راعيا. وكلمة «بياه» في البيت مصحفة هكذا: «بباب» ولفظة ياه نداء الراعي على صاحبه، وتلوم انتظر واسبطرت: انبسطت للمغيب اي ان هذا الراعي انتظر يهياه بياه وذلك انه قال «ياه»

وكررها منتظرا ان يجيبه صاحبه بياه وفسّر ذلك ذو الرمة بوضوح في بيت ثان بالقصيدة اذ قال قبله :

ينـادي بيهـياه وياه كأنـه
دعـاء الرُّوَيْعِي ظلّ بالـليل صاحـبُـهْ

والرويعي تصغير الراعي ، ولاشك ان هذا التصحيف في ألفاظ الاشعار المنسوبة يضيف الى صعوباتها صعوبات اخرى في التعرف على التصحيف بمراجعة دواوين الشعر ومجاميعه المحققة الكثيرة، وقد لا يكـون التصحيف في الفـاظ الشـاهـد الشعري وانما في اسم الشاعر المنسوب اليه الشاهد، ونضرب لذلك مثلا من تصحيف اسم الشاعر «سُلْمَى بن ربيعة» الذي انشد له ابو تمام في الحماسة قصيدة تخرج عن اوزان الشعر العربي اقتبس صاحب اللسان منها مع اختلاف في الالفاظ ثلاثة أبيات وسمى ناظمها سليمان بن ربيعة بن دباب على نحو ما يلقانا عنده في مادة تقن، وعلى هذا النحو تلقانا في الشعر المنسوب بالمعاجم الكـبرى مثـل اللسـان صعـوبات تتصل احيانا بصحة اسماء ناظميه واحيانـا بصحـة الفاظه، وكثيرا ما تتوارد المعاجم الكبرى على ابيات تختلف فيها روايتها ولذلك ينبغي المقابلة بينها والرجوع الى الاصل في الدواوين وغير الدواوين .

واذا كانت الصعوبات السالفة تقترن بالشعر المنسوب الى ناظميه في المعـاجم الكبرى فان صعوبات مختلفة تقترن بالشعر غير المنسوب المجهول القائل، وهو يكثر في تلك المعاجم حتى ليكاد يبلغ نحو ثلث الشواهد في معجم كبير مثل لسان العرب، ونعرض اولا لمدى صلاحيته في الاستشهاد به على ابنية اللغة واوضاعها المختلفة، فقد ذهب قوم من أئمة اللغة مثل ابن الانباري في المسألة رقم 80 من كتابه الانصاف تعليقـا على بيت مجهول ناظمه اذ قال: «هذا البيت غير معروف ولا يعرف قائله فلا يكون حجة» وقال مثل قوله ابن النحاس في ابيات شاذة اعتمدها الكوفيون في بعض قواعدهم لا يعرف قائلوها، ولا رواها احد

من الموثوق بهم في اللغة، وذهب آخرون من أئمة اللغة الى جواز الاحتجاج بالابيات التي لا يعرف قائلوها مستدلين على ذلك بان في كتاب سيبويه الف بيت عرف قائلوها وخمسين مجهولة القائلين، واعتمدها الأئمة بعده، وهي حجة ضعيفة لأن سيبويه كان يتحرى أشد التحري في شواهده وأمثلته، ويكثر من قول: حدثني من لا أتهم ـ وحدثني من أثق به، فينبغي الاكتفاء منه بهذه الدقة في روايته، وذكر المرزباني عن ابي زيد اللغوي المشهور قال: كل ما قال سيبويه في كتابه: «أخبرني الثقة» فأنا أخبرته به ولما رأى أصحاب هذا الراي ان الاستدلال بالابيات الخمسين المجهولة القائل عن سيبويه لا يتجه قالوا لماذا لا نعدّ الشواهد المجهولة القائلين مثل الاحاديث النبوية المروية بالمعنى لا باللفظ غير ان الاحتجاج بهذه الاحاديث انما حدث في الازمنة المتأخرة فلا تقاس عليها الشواهد اللغوية المجهولة القائلين. والواقع ان الاستشهاد بالشواهد التي لا يعرف ناظموها قد يوقع في كثير من الخلل في ابنية اللغة واقيستها المطردة، والقواعد والاقيسة لا يصح ان تؤخذ من شعر مجهول القائل لما ذكرنا، واذا رجعنا الى لسان العرب في باب ان وانها قد تكون مصدرية ناصبة للفعل المضارع وقد تكون مخففة من ان الثقيلة رأيناه ينشد لشاعر مجهول قوله:

أن تقرءان على أسماء ويحكما
مني السلام وان لا تعلما أحدا

وواضح ان المضارع: «تقرءان جاء مرفوعا بعد أن، فقال ثعلب ـ كما في اللسان ـ شبهت ان في البيت بما المصدرية فلم تعمل في الفعل وتبعه في هذا الراي البغداديون. وقال أبو علي الفارسي: «أن» في البيت مخففة من ان الثقيلة اي انكما تقرآن وفيه تكلف واضح او بعض الصنعة كما في اللسان، وكان يرجح راي الكوفيين غير انه راي يفسد قاعدة لغوية، او يحدث بها شللا واضحا. وهي القاعدة المطردة في اللغة لان المصدرية وان المضارع لابد ان ينصب بعدها، اليس من الواجب ان يهمل هذا البيت الذي ينبني عليه اما تمحل بعبد لتخريجه عند ابي علي

الفارسي واما الغاء قاعدة ان المصدرية وعملها النصب في المضارع التالي لها، وكان ينبغي ان لا يسلكه صاحب اللسان في معجمه ولا اللغويون في كتبهم لان قائله مجهول. وعلى هذا النحو كان ينبغي ان ينحي اللغويون عن معاجمهم الابيات التي لا يعرف قائلها والتي من شأنها ان اخذنا بها ان تفسد القواعد اللغوية العامة، اما الابيات المجهولة القائلين الاخرى فيمكن ان تذكر للاستئناس بها فحسب. على ان ذلك ان قبل في المعاجم غير التاريخية فانه لا يقبل في المعجم التاريخي، بحال، لان تلك الابيات او الشواهد لا يعرف تاريخها ولا الزمن الذي نظمت فيه بالضبط، فلا نستطيع تعيين المكان الذي توضع به في المادة ولا كيف نرتبها مع غيرها من شواهدها، لذلك ينبغي اهمالها جميعا.

وأشرنا فيما أسلفنا الى ان أئمة اللغة الذين وضعوا معاجم العربية الكبرى لم يتجاوزوا فيما انشدوه من الشواهد الشعرية العصر الاسلامي اذ كانوا لا يعتدون بما نظمه المولدون او المحدثون منذ القرن الثاني الهجري لما عرض للعربية عند كثيرين منهم من الاختلال والفساد وهنا تتراءى صعوبة شديدة العسر لمن يحاولون تأليف معجم تاريخي اذ ينبغي ان لا يكتفوا فيه بما في المعاجم الكبرى من شواهد شعرية قديمة توضح استعمالات الكلم ومعانيها اللغوية حتى نهاية العصر الاموي، اذ لابد ان يضيفوا اليها ركاما ضخما من شواهد شعرية جديدة من العصر العباسي وما بعد العصر العباسي، توضح ما حدث من تطور لمعاني الالفاظ واستعمالاتها على مر الزمن، حتى يمكن ان يوصف المعجم اللغوي بانه معجم تاريخي للعربية بحق، وهي طبعا مهمة في غاية الصعوبة ولابد ان يقهر صعوبتها ويتغلب عليها واضعو المعجم التاريخي المعاصر او من يريدون وضعه، ويمكن الافادة في تذليل هذه الصعوبة مما ذهب اليه بعض أئمة اللغة من صحة الاستشهاد في اللغة بأشعار من عرف من المولدين باتقان العربيّة، محتجين بأن سيبويه استشهد في كتابه ببعض شعر بشار بن برد، وردّ عليهم المعارضون لهذا الصنيع بان سيبويه انما اضطر الى ذلك تقربا الى بشار اذ هجاه لتركه

الاحتجاج بشعره في كتابه فحاول ارضاءه بذلك حتّى يكفّ عن هجائه، فلا يتخذ ذلك قاعدة عامة في قبول اشعار المولدين، غير ان الزمخشري خالفهم في رفضهم العامّ لأشعار المولّدين بأوائل تفسيره للذكر الحكيم في كتابه المعروف باسم الكشاف، اذ نجده في التعليق على لفظ (أظلم) في آية سورة البقرة: «يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا» يقول: «أظلم يحتمل ان يكون غير متعدّ وهو الظاهر، وان يكون متعديا جاء في شعر حبيب بن أوس الطائي «أبي تمام» عن العقل والدهر:

هما أظلما حاليَّ ثمت أجليا
ظلاميهما عن وجه أشيب أمرد

ويستمر الزمخشري قائلا: «وهو (أي أبو تمام) ـ وإن كان محدثا ـ لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه (اي في الثقة اللغوية به) ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل على ذلك بيت (ديوان) الحماسة (التي روى أشعارها) فيقتنعون بذلك بوثوقهم بروايته وإتقانه «ومعنى ذلك ان الزمخشري يستثني من شواهد الشعراء العباسيين التي لا يرتضيها اصحاب المعاجم اللغوية الكبرى اشعار أبي تمام لحسن فقهه بالعربية، على نحو ما استثنى سيبويه أشعار بشار بن برد لاطمئنانه الى انه يتقن العربية.

وينبغي الاخذ بوجهة نظر الزمشخري، فتستثنى الشواهد الشعرية من اشعار العباسيين وغير العباسيين المعروفين بأنهم يفقهون العربية فقها حسنا مثل المتنبي في القرن الرابع الهجري وفيه يقول صاحب معاهد التنصيص «لقد كان المتنبي من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحوشيّها ولا يسأل عن شيء الا ويستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر حتى قيل ان الشيخ ابا علي الفارسي قال له يوما: كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى؟ فقال المتنبي في الحال: حجْلَى وظِرْبَى، وقال الشيخ أبو علي: فطالعت في كتب اللغة ثلاث

ليال على ان اجد لهذين الجمعين ثالثا فلم اجد «والمتنبي بذلك من كبار علماء اللغة، وشعره أجدر ان يستشهد به في معاجم العربية من شعر أبي تمام ونلتقى بأبي العلاء المعري المتوفي بعد المتنبي بنحو قرن، وكان إماما كبيرا من أئمة اللغة حتى ليقول تلميذه التبريزي «ما اعرف ان العرب نطقت بكلمة لم يعرفها المعري» وقالوا: كان بالمشرق لغوي وبالمغرب لغوي في عصر واحد لم يكن لهما ثالث، وهما أبو العلاء المعري وابن سيدة الاندلسي صاحب المعجمين الكبيرين: المحكم والمخصص، وبدون ريب اشعار أبي العلاء في ديوانيه «سقط الزند» و«اللزوميات» جديرة بأن تحتل في المعجم العربي التاريخي الحديث حيزا واسعا لصحتهما اللغوية التامة الى ابعد غاية.

ولكي يكون المعجم العربي التاريخي - في رأيي - تاريخيا حقا ينبغي ان يضم الى شواهده الشعرية لا شواهد من شعر بشار وأبي تمام والمتنبي وأبي العلاء فقط، بل ايضا شواهد من الدواوين المحققة لافذاذ شعراء العربية على مر التاريخ، وبذلك يكون هذا المعجم وعاء جامعا لتطور معاني الكلم في العربية ودلالاتها لغويا وادبيا وفكريا من الجاهلية الى العصرالحديث. واني لاهنىء جمعية المعجمية العربية بتونس باتخاذها العدة العلمية السديدة لصنع هذا المعجم العربي التاريخي.

شوقي ضيف